وأراد الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك أن يبين مصارف الصدقة حتى يعرف هؤلاء الراغبون فى متاع الدنيا هذه المصارف ويتعرفوا إلى حقيقة الأمر ، وليتبينوا هل هم يستحقون الصدقة أم لا ، فقال جل جلاله :

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

وعندما تسمع كلمة ﴿ إِنَّمَا ﴾ فافهم أنه يُرَادُ بها القصر ، فإن قلتَ : إنما الرجل زيد ، أى : أنك قصرت الرجولة على زيد . وإن قلتَ : إنما الكريم حاتم ، تكون قد قصرت الكرم على حاتم . وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ ﴾ معناها : أن الصدقات محصورة فى هؤلاء ولا تتعداهم .

فمن هم هؤلاء الذين حصر الحق سبحانه وتعالى فيهم الصدقة ؟ وما المراد هنا بالصدقة ؟ هل هى صدقة التطوع أو الزكاة ؟

نقول : ما دام الحق سبحانه وتعالى قد حدد لها مصارف فهى الزكاة ، ولسائل أن يسأل : لماذا لم يَقُل الحق سبحانه وتعالى الزكاة وقال الصدقة ؟

ونقول : ألا ترى - فى المجتمعات غير الإيمانية الملحدة - أن من الناس مَنْ يفكرون فى إنشاء مؤسسات اجتماعية لرعاية الفقراء ؟ إن عطف الإنسان على أخيه الإنسان هو أمر غريزى خلقه الله فينا جميعاً ، ولذلك

كان يجب أن نفهم أن الزكاة صدقة ، ولو لم يشرعها الله لكان يجب أن يقدمها الإنسان لأخيه الإنسان . وحوادث الكون كلها تدل على صدق وصف الحق سبحانه وتعالى للزكاة بأنها صدقة ؛ لأنها تأتى تطوعاً من غير المؤمن وغير الملتزم بالتشريع ، ويحس القادر بالسعادة وهو يعطى لغير القادر ، وهى غريزة وضعها الله فى خلقه ليخفف من الشقاء فى الكون .

وهنا يقول الحق : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ وقد احتار العلماء فى ذلك ، فقال بعضهم : إن الفقير هو الذى لا يجد شيئاً فهو مُعدم . والمسكين هو من يملك شيئاً ولكنه لا يكفيه ، وعلى هذا يكون المسكين أحسن حالاً من الفقير ، واستندوا فى ذلك إلى نص قرآنى فى قوله تعالى :

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ... (٧٩) ﴾ [ الكهف ]

وما دام هؤلاء المساكين يملكون سفينة إذن فعندهم شىء يملكونه . ولكن العائد الذى تأتى به السفينة لا يكفيهم .

ولكن بعض العلماء قالوا عكس ذلك ، ورأوا أن المسكين هو مَنْ لايملك شيئاً مطلقاً ، والفقير هو الذى يجد الكفاف . وعلى هذا يكون الفقير أحسن حالاً من المسكين ، ولا أعتقد أن الدخول فى هذا الجدل له فائدة ؛ لأن الله أعطى الاثنين . . الفقير والمسكين . وكلمة "فقير" معناها الذى أتعبت الحياةُ فَقَار ظهره أى فقرات ظهره ، وحاله يغنى للتعبير عنه ، والمسكين هو الذى أذهلته المسكنة .

ثم يأتى بعد ذلك : ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ أى : الذين يقومون بجمع الصدقات ويأخذونها ممن يعطيها ويضعونها فى بيت المال ، ونلاحظ هنا أن ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ جاءت مطلقة ؛ فلم تحدد هل يستحق الصدقة مَنْ كان

يجمعها وهو فقير ، أو مَنْ كان يجمعها وهو غير محتاج . ونقول : إن جمع الصدقة عمل ، ولوقلنا : إن غير المحتاج ويعمل فى جمع الصدقة لا يجب أن يأخذ أجراً ، هنا يصبح عمله لوناً من التفضل ، وما دام العمل تفضُّلاً فلن يكون بنفس الكفاءة التى يعمل بها ، إذا كان العمل بالأجر . وأيضاً حتى لا يُحرَم المجتمع من جامع صدقة ذكى نشيط ؛ لأنه غير محتاج ، ولكن نعطيه أجراً ليكون مسئولاً عن عمله ، والمسئولية لا تأتى إلا إذا ارتبطت بالأجر .

والعامل على جمع الصدقة إنما يعمل لصالح الدولة الإيمانية ، فهو يجمع الصدقات ويعطيها للحاكم أو الوالى الذى يوزعها . وفى هذا مصلحة لمجتمع المسلمين كله . خصوصاً إن كانت الصدقة توزع من بيت المال فلا يتعالى أحد على أحد ، ولا يذل أحد أمام أحد ، وفى هذا حفظ لكرامة المؤمنين ؛ لأن من يأخذ من غير بيت المال سيعانى من انكسار يده السُّفْلى .

ومن يعطى لغير بيت المال قد يكون فى عطائه لون من تعالى صاحب اليد العليا ، وكذلك فإن أولاد الفقير لن يروا أباهم وهو ذاهب إلى رجل غنى ليأخذ منه الصدقة ويُصَاب بالذلة والانكسار . ولا يرى أولاد الغنى هذا الفقير وهو يأتى إلى أبيهم ليأخذ منه الصدقة ؛ فَيتعالَوْنَ على أبناء الفقير . فإن أخذ الفقراء الصدقة من بيت المال ، كان ذلك صيانة لكرامة الجميع ، وإن حدث خلاف بين غنى وفقير فلن يقول الغنى للفقير : أنا أعطيك كذا وكذا، أو يقول أولاد الغنى لأولاد الفقير : لولا أبونا لَمُتُّمْ جوعاً .

إذن : فقد أراد الحق سبحانه بهذا النظام أن يمنع طغيان المعطى ، ويمنع - أيضاً - ذلة السؤال ، فالكل يذهب إلى بيت المال ليأخذ أو يعطى . وحين يذهب الفقير ليأخذ من بيت المال بأمر من الوالى فلا غضاضة ؛ لأن كل المحكومين تحت ولايته مسئولون منه .

ثم يأتي الحق إلى فئة أخرى فيقول : ﴿ وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ وهم من يريد الإسلام أن يستميلهم ،أو على الأقل أن يكفوا آذاهم عن المسلمين . وكان المسلمون فى الزمن الأول للإسلام ضعافاً لا يقدرون على حماية أنفسهم . وعندما أعز الله دولة المسلمين بالقوة والعزة والمكانة، منع الخليفة عمر بن الخطاب إعطاء المؤلفة قلوبهم نصيباً من الزكاة؛ لأنه لم يجد أن قوة الإسلام تحتاج أحداً غير صحيحى الإيمان ؛ لذلك لم يدخلهم عمر بن الخطاب فى فئات الزكاة [1].

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ يثير سؤالاً : هل يُؤلَّف القلب ؟ . نقول : نعم ، فالإحسان يؤلف قلب الإنسان السَّوى ، وكذلك يؤلف جوارح الإنسان غير السوى ، فلا يعتدى على من أحسن إليه باللسان أو باليد .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَفِى الرِّقَابِ ﴾ ومعناها العبيد الذين أُسروا فى حرب مشروعة . وكانت تصفية الرق من أهداف الإسلام ؛لذلك جعل من مصارف الزكاة تحرير العبيد . ويعض من الناس يدَّعُون أن الإسلام جاء بالرق وأقره . ونقول : لم يأت الإسلام بالرق ؛ لأن الرق كان موجوداً قبيل البعثة المحمدية ، وجاء الإسلام بالعتق ليصفى الرق ، فجعل من فَكِّ الرقبة كفارة لبعض الذنوب [2] . وجعل من مصارف الزكاة عتق العبيد . وقد نزل القرآن وقت أن كانت منابع الرق متعددة .

---

(١) أسقط عمر سهمهم فى الصدقات لما رأى من إعزاز الدين . وهو أيضاً قول الحسن البصرى والشعبى وغيرهما . وقال الزهرى : لا أعلم نسخاً فى ذلك . وقال ابن العربى : إن قوى الإسلام زالوا ، وإن احتيج إليهم أعطوا سهمهم . انظر تفسير القرطبى ( ٤/ ٣١٠٦ ) .

(٢) وهذا مثل قتل المؤمن خطأ ، قال تعالى : ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا .. ﴾ [ النساء:٩٢] وكذلك كفارة اليمين قال تعالى : ﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ... ﴾ [ المائدة: ٨٩ ]

وكان من المعتاد فى تلك الأيام أن المدين الذى يعجز عن سداد ما عليه من دَيْن ، فالدائن يأخذه أو يأخذ أحد أبنائه كعبد له .

وإذا فُعلَتْ جناية ، فالجانى يأخذ العفو من المجنى عليه مقابل أن يعطيه أحد أولاده عبداً . وإذا سُرق شىءفإن السارق لا يعاقب ، بل يعطى أحد أولاده عبداً للمسروق منه . وكان الأقوياء يستعبدون الضعفاء ؛ فيخطفون نساءهم وأولادهم بالقوة ويبيعونهم فى سوق الرقيق ، وهكذا كانت منابع الرق فى العالم متعددة ، ولا يوجد إلا مصرف واحد هو إرادة السيد ؛ إن شاء حرر وإن شاء لم يحرر .

وقد كان الرق موجوداً فى أوروبا وفى آسيا وفى أفريقيا ووُجد أيضاً فى أمريكا . إذن : كانت هناك منابع متعددة للرق ؛ ومصرف واحد هو إرادة السيد ، وقد كان الرق يتزايد ، وجاء الإسلام والعالمُ غارق فى الرق ، لماذا ؟

لأن الرق فى ذلك الوقت كان يشبه حوضاً تصب فيه صنابير متعددة ، وليس له إلا بالوعة واحدة . ولم يعالج الإسلام المسألة طفرة واحدة ، شأن معظم تشريعات الله ، ولكنه عالجها على مراحل ، تماماً كتحريم الخمر حين بدأ التحريم بالمنع عند الصلاة ، فقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ .. (٤٣) ﴾ [ النساء ]

ثم حرمها تحريماً قاطعاً [١] .

---

(١) مرّ تحريم الخمر بثلاث مراحل :

١ - ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ... (٢١٩) ﴾ [ البقرة ]

٢ - ﴿ لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ... (٤٣) ﴾ [ النساء ]

٣ - ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١) ﴾ [ المائدة ]

وحين جاء الإسلام ليعالج قضية الرق ويحرر الإنسان من العبودية ، بدأ بإغلاق مصادر الرق . وجعل المصدر الوحيد هو الحرب الإيمانية المشروعة من ولى الأمر . أما كل الوسائل والألوان الأخرى من أبواب الرق ، كأن يتم استعباد أحد كعقوبة جنائية أو لعجزه عن تسديد دَيْن أو غير ذلك ، فقد أغلقها الإسلام بالتحريم . أما ناحية المصرف فلم يجعله مصرفاً واحداً هو إرادة السيد ، بل جعله مصارف متعددة ؛ فالذى يرتكب ذنباً يعرف أن الله لن يغفر له إلا إذا أعتق رقبة ، ومن حلف يميناً ويريد أن يتحلل منها ؛ يعتق رقبة . فإذا لم يفعل هذا كله وأراد أن يحسن إحساناً يزيد من أجره عند الله ؛ أعتق رقبة [1] .

وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) ﴾ [البلد]

وهكذا جعل الإسلام مصارف كثيرة لتصفية الرق حتى ينتهى فى سنوات قليلة ، ثم وضع بعد ذلك ما يُنهِى الرق فعلاً ، وإنْ لم يُنْهِه شكلاً .

فإذا كان عند أى سيد لون من الإصرار على أن يستبقى عبده ، فلا بد أن يُلبسه مما يلبس ، ويُطعمه مما يَطْعم ، فإن كلَّفه يعينه [2] . وهكذا أصبح الفارق متلاشياً بين السيد وعبده .

وحين ألغتْ بعض الدول الإسلامية الرقَّ بالقانون ، ذهب الرقيق إلى أسيادهم وقالوا : دعونا نعش معكم كما كنا . وهم قد فعلوا ذلك لأن

---

(١) وفى فضل العتق يقول ﷺ : « من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار حتى فرجه بفرجه » متفق عليه من حديث أبى هريرة . أخرجه البخارى (٦٧١٥) ومسلم (١٥٠٩) .

(٢) عن أبى ذر أن رسول الله ﷺ قال : « هم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه ، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه عليه » متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٥٠) ومسلم فى صحيحه (١٦٦١) .

حياتهم مع أسيادهم كانت طيبة . وهكذا ألغى الإسلام فوارق الرق كلها ، وأصبحت مسألة شكلية لا تساوى شيئاً .

ولكن بعض الناس يتساءل : وماذا عن قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ..(٣٦) ﴾ [ النساء ]

نقول : افهم عن الله ، فهذا الأمر لا يسرى إلا إذا كانت المرأة المملوكة مشتركة فى الحرب ، أى : كانت تحارب مع الرجل ثم وقعت فى الأسْر ، والذى يسرى على الرجل فى الأسر يسرى عليها ، ثم من أى مصدر ستعيش وهى فى بلد عدوة لها ؛ إنَّ تركها فى المجتمع فيه خطورة على المجتمع وعليها. كما أن لهذه المرأة عاطفة سوف تُكْبتُ ، فأوصى الإسلام السيد بأنه إذا أحب هذه الأمَة فلها أن تستمتع كما تستمتع زوجة السيد ، وإن أنجبت أصبحت زوجة حرة وأولادها أحراراً [1]، وفى هذا تصفية للرق .

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن لون آخر من مستحقى الزكاة : ﴿ وَالْغَارِمِينَ ﴾ والغارم : هو من استدان فى غير معصية ، ثم عجز عن الوفاء بدَيْنه . ولم يمهله صاحب الدَّيْن كما أمر الله فى قوله تعالى :

﴿ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ..(٢٨٠) ﴾ [ البقرة ]

ولم يسامحه ولم يتنازل عن دَيْنه ، وفى هذه الحالة يقوم بيت المال بسداد هذا الدَّيْن . لكن لماذا هذا التشريع ؟

لقد شاء الحق إعطاء الغارم الذى لا يجد ما يسد به دَيْنه حتى لا يجعل الناس ينقلبون عن الكرم وعن إقراض الذى يمر بعسر ، وبذلك يبقى اليُسْر

(١) وهى ما يسمى فى الشرع « أم ولد » ، وهى الأمة تصير حرة إذا ولدت من سيدها ، وله أن يستمتع بها ما دام حياً ، فإذا مات فهى حرة . انظر نيل الأوطار (٦/ ٩٦ - ٩٩) .

فى المجتمع ، وتبقى نجدة الناس للناس فى ساعة العسرة ، فلا يمتنع أحد عن إعطاء إنسان فى عسرة ؛ لأنه يعلم أنه إن لم يدفع فسيقوم بيت المال بالسداد من الزكاة. أو : أن الغارم هو الذى أراد أن يصلح بين طرفين ، كأن يكون هناك شخصان مختلفان على مبلغ من المال ، فيقوم هو بفضِّ الخلاف ودَفْع المبلغ ، ثم تسوء حالته ؛ لأنه غرم هذا المال بنخوة إيمانية ، فنقول له : خذ من بيت المال حتى يشيع فى النفوس تصفية الخلافات وإشاعة الحب بين الناس . إذن : فالغارم هو المستدين فى غير معصية ولا يقدر على سداد الدين، أو المتحمِّل لتكلفة إصلاح ذات البَيْن بين طرفين ، وهو مستحق لهذا اللون من المال .

ويقول الحق سبحانه: ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ . يقول جمهور الفقهاء: إنها تنطبق على الجهاد [1]؛لأن الذى يضحى بماله مجاهداً فى سبيل الله ، لو لم يعلم أن الجهاد باب يدخله الجنة لما ضَحَّى بماله ، وعندما تضحى بالمال أو النفس فى سبيل الله يكون هذا من يقين الإيمان . فلو لم تكن على ثقة أنك إذا استشهدت دخلت الجنة ما حاربت . ولو لم تكن على ثقة بأنك إذا أنفقتَ المال جهاداً فى سبيل الله دخلتَ الجنة ما أنفقت .

والإسلام يهدف إلى أمرين : دين يبلِّغ ومنهج يُحقَّق ، والمجاهد فى سبيل الله أسوة لغيره من المؤمنين . والأسوة فى الإسلام هى التى تُقوِّيه وتُثبِّته فى النفوس ؛ لأنها الإعلام الحقيقى بأن ما تعطيه من نفسك أو مالك لله ستجازى عنه بأضعاف أضعاف ما أعطيت .

(١) قال القرطبى من المفسرين (٤/ ٣١١٠) : «﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هم الغزاة وموضع الرباط ، يعطون ما ينفقون في غزوهم كانوا أغنياء أو فقراء . وهذا قول أكثر العلماء . وهو تحصيل مذهب مالك رحمه الله . وقال ابن عمر : الحجاج والعمار » .

﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أيضاً كل ما يتعلق بمصارف البر مثل : بناء المساجد والمدارس والمستشفيات[١] .

ثم يقول سبحانه موضحاً لمصرف جديد من مصارف الصدقة والزكاة : ﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ ، ونحن نعلم أن كل إنسان ينسب إلى بلده . فهذا دمنهوري وهذا طنطاوي ، إلى آخره حسب البلد الذي هو منه . ولكن لنفرض أن إنساناً مشى في الطريق في غير بلده فإلى من تنسبه وأنت لا تعرف بلده ؟ تنسبه إلى الطريق فيصبح : ابْنَ السَّبِيلِ ؛ لأن السبيل هو الطريق . وهذا الإنسان الغريب عن بلده لابد أن تعينه حتى يصل إلى بلده ، وإنْ وجد الإنسان مَنْ يعينه في هذه الحالة ، فسوف يشجع ذلك سفرالشباب إلى الدول الأخرى لطلب الرزق ، وأيضاً هناك من يسافرليزداد خبرة أو يسافر للسياحة ، وهناك من يسافر للتجارة، وقد يكون غنياً ولكنه قد يفقد ماله في الطريق . ويريد الحق سبحانه أن يكفل عباده وهم غرباء من أي مفاجأة قد تجعلهم في عسر ، فالذين سافروا سياحة مثلاً ثم أصيبوا بكارثة أوجب الحق مساعدتهم ، والذين سافروا طلباً للرزق ولم يُوفَّقوا أوجب الله سبحانه وتعالى مساعدتهم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد من عباده أن يسيروا في الأرض ليروا آياته ، وليبتغوا الرزق ، إذن: فابن السبيل هو كل غريب صادفته ظروف صعبة، ولا يجد ما يعود به إلى بلده.

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ﴾ أي: أن كل من حدد الله سبحانه وتعالى استحقاقه للصدقة إنما يستحقها بفرض من الله ، فالصدقة فريضة للفقراء ، فريضة للمساكين ، فريضة للعاملين عليها ، والمؤلَّفة قلوبهم وفي الرِّقاب ، والغارمين ، وفي سبيل الله ، وابن السبيل .

(١) قال الزبيدي في شرحه لإحياء علوم الدين (٤/ ٢٥٠) : « فيخرجها فيما تطلبه مكارم الأخلاق من غير اعتبار صنف من أصناف المخلوقين ، بل ما تقتضيه المصلحة العامة لكل إنسان بل لكل حيوان حتى الشجرة يراها تموت عطشاً ، فيكون عنده بما يشترى لها ما يسقيها به من مال الزكاة فيسقيها بذلك ، فإنه من سبيل الله » .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، والله هو واجب الوجود وخالقه ، خلق الإنسان وكرَّمه فجعله خليفة فى الأرض . وقبل أن يخلق سبحانه الإنسان أعدَّ له الكون الذى يعيش فيه ؛ الأرض والشمس والقمر والسماء والكواكب والنجوم . ثم جاء الإنسان إلى الكون؛ ليجد كل شىء قد أعدَّ لخدمته خاضعاً له ، فلا يوجد جنس من الأجناس يتأبى عن خدمة الإنسان ، فلا الأرض إذا زُرِعَتْ رفضت إنبات الزرع ، ولا الحيوان الذى سخره الله جل جلاله لخدمة الإنسان يتأبى عليه ؛ فالحمار تُحمِّله السباخ والقاذورات فلا يرفض ، وتنظفه وتجعله مَطيَّة تنقلك من مكان إلى آخر فلا يتأبى عليك .

وما دام سبحانه الذى خلق ، فهو أدرى بمن خلق ، وبما يصلحه وما يفسده - ولله المثل الأعلى- نحن نعرف أن المهندس الذى يصمم آلة إنما يضع لها قانون صيانتها . فما بالنا بخالق الإنسان المتعدد المشاعر والأطوار ؟ إن خلق الإنسان لا يقتضى علماً فقط ، ولكنه يقتضى أيضاً حكمة ؛ لأنك قد تعلم ، ولكنك لا تستخدم العلم فيما تفعل ، كأن تعلم قانون صيانة آلة معينة ثم لا تطبقه وتحاول أن تأتى بقانون من عندك ؛ لذلك فلا بد مع العلم من حكمة لتضع الشىء فى موضعه السليم . ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

ونحن نعلم أن الصدقات تقتضى مُتصدِّقاً وهو المعطى ، ومُتصدَّقاً عليه وهو مستحق الصدقة أو الذى يأخذها ، ومُتصدَّقاً به وهو الشىء الذى تصدق به ، إذن فهناك ثلاثة عناصر : المتصدِّق، والمتصدَّق عليه ، والمتصدَّق به .

قد يتساءل بعض الناس : لماذا خلق الله الإنسان الخليفة فى الأرض وجعل بعضهم قادراً وبعضهم عاجزاً ، وهذا يعطى وهذا يأخذ ، ولماذا لم يجعل الكل قادرين ؟

نقول : إن مفارقات التقابل فى الأشياء تجعلها تتكامل ، فهناك ليل وهناك نهار ، فهل الليل ضد النهار ؟ لا ؛ لأن الليل مُكمِّل للنهار، والنهار مُكمِّل لليل . ولو لم يُخلقا معاً متكاملين ؛ لاختلَّ التوازن فى الكون .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [ القصص ]

إذن: فالإنسان يحتاج إلى ضوء النهار للحركة والعمل ، ويحتاج إلى ظُلْمة وسكون الليل للنوم ، وإن لم يَنَم الإنسان ويسترحْ فهو لا يستطيع مواصلة العمل . وهكذا نرى الليل والنهار متكاملين وليسا متضادين . كذلك الرجل والمرأة . وقد لا يفهم بعض الناس أن الرجل والمرأة متكاملان ، ويقولون: لا بد أن تساوى المرأةُ الرجلَ ، ونقول : إنكم تعتقدون أن المرأة والرجل جنسان مختلفان، ولكنهما جنس واحد مخلوق من نوعين ، وكل نوع له مهمة وله خاصية . وللإنسان المكوَّن من الرجال والنساء مهمة وخصائص يشتركون فيها ، ويتضح لنا ذلك عندما نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى فى سورة الليل :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [ الليل ]

كأن الذكر والأنثى ، مثل الليل والنهار متساندان متكاملان، فلا تجعلهما أعداء بل انظر إلى التكامل بينهما ، ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [الليل]

أي: كُلٌّ له مهمة فى الحياة ، واقتضتْ حكمته سبحانه فى خلق الكون أن يجعل كل شىء يخدم الإنسان ؛ الجماد يخدم الإنسان ، وكذلك النبات ، وكذلك الحيوان ، حتى يكون الإنسان مستجيباً لمنهج الله ولعبادته . وكذلك اقتضتْ الحكمة أيضاً أن يخلق الله سبحانه وتعالى أشياء لا تستجيب للإنسان ؛ حتى يعرف الناس أن هذا الكون ليس مُذَلَّلاً بقدراتهم هم ، بل بقدرة الله سبحانه وتعالى ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق]

فتجد مثلاً الجمل بضخامته ينقاد لطفل صغير ، بينما الثعبان الصغير على دقَّة حجمه لا يجرؤ الإنسان أن يقترب منه .

وفى الوقت نفسه، فإن هذه الحكمة تقتضى أن يحس الإنسان أن قدراته وقوته موهوبة له من الله سبحانه وتعالى ، وأنها ليست من ذات الإنسان . ولذلك يخلق الله أناساً ضعافاً لا يقدرون على الكسب، ليلفت أنظارنا إلى أن قوة القوى هى هبة من الله ، وليست فى ذاتية الإنسان ، وإلا لو كانت ذاتية فى الإنسان ما وُجد عاجز . ولا بد أن يفهم كل قوى أن قوته هبة من الله يمكن أن تسلب منه فيصبح ضعيفاً مثل من يراهم أمامه من ضعاف البشر.

والضعيف غير القادر على العمل ، والأعمى غير القادر على الكسب ، والكسيح غير القادر على السير ، كل هؤلاء موجودون فى الكون ليلفتوا الأصحاء والأقوياء إلى أن الصحة والقوة من الله ، فلا يغتر الأصحاء والأقوياء بأنفسهم ويرتكبوا المعاصى ، بل عليهم أن يخافوا الله ، فسبحانه الذى أعطى يستطيع أن يأخذ .

كما اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يقسم الأرزاق بيننا لتسير حركة الكون . وإلا لو أصبحنا كلنا ميسورين، فمن الذى يقوم بتنظيف الشارع ؟ ومن الذى يقوم بتسليك البالوعات؟ ومن الذى يحمل الطوب والأسمنت على كتفيه للبناء ؟ وإن كنا جميعاً نملك المال فلن يرضى أحد أن يقوم بالأعمال البسيطة والمزعجة والمرهقة ، وشاء الله أن يربط هذه الأعمال بالرزق ، بحيث يقوم بها بعضنا ليحصل على قوت أولاده ، وإلا لما أمسك أحد بمكنسة لتنظيف الطريق ، وما عمل أحد فى إصلاح المجارى ؛ لذلك قد ترى مَنْ يقومون بهذه الأعمال سعداء عندما تُسَدُّ المجارى ، أو يحتاج الطريق إلى نظافة ؛ لأن رزقهم يأتى من هذا العمل .

ولكن أيبقى هذا الحال على ما هو عليه ؟ لا ؛ لأن الأيام تُتداوَلُ بين الناس ، وكل واحد له عُرْس وله مأتم . وتأتى أيام تكون فيها هذه الأعمال اليدوية هى مصدر الرزق الوفير ، وهى التى يملك أصحابها سعة الرزق ، أكثر من الذين درسوا فى الجامعات وأهِّلوا للمناصب ، لكنهم أقل دخلاً وأقل رزقاً .

وهكذا نعلم أن الكون يحتاج إلى المواهب المتعددة التى تتكامل فيه ، فأنت إذا أردت أن تبنى بيتاً تحتاج إلى مهندس ومقاول ونجار وحداد وبنَّاء إلى غير ذلك ، ولا يمكن لإنسان أن يملك هذه المواهب كلها فى وقت واحد . فلا بد أن تتكامل وأن يرتبط هذا التكامل بالرزق ولقمة العيش . بل وتجد أن الإنسان قد يتخصص فى عمل ويتقنه بينما يحتاج هو لبعض من وقته ليقوم بمثل هذا العمل لبيته فلا يجد ، ولذلك يقال : " باب النجار مخلّع " ؛ لأن الأبواب الأخرى التى يصنعها مرتبطة برزقه وهو يحاول أن يحسن صناعتها ، أما بابه هو فلا رزق له فيه ، ولذلك قد يكسل عن صيانته .

ولا بد أن يعرف الإنسان أنه ليس أصيلاً فى الكون ، بل مستخلف فيه ؛ لأن الفساد ينشأ دائماً حين يعتبر الإنسان نفسه أصيلاً فى الكون . وإياك أن تفهم أن المعْطى مُفضَّل على الآخذ ، أو أن الآخذ مُفضَّل على المعُطى ، بل هما متعادلان ، فالإيمان نصفان : نصف شكر ونصف صبر . إما أنك فى نعمة فتشكر . وإما أنك فى محنة فتصبر . وعندما نتأمل الغنى المستخلَف فى النعمة نجد أنه قد أخذ النصف الذى يخصه كشاكر ، وحُرِمَ من النصف الآخر الإيمانى وهو الصبر ؛ ولذلك يأتى الإسلام له بتشريع يأخذ منه بعضاً من ماله الذى حصل عليه بعرقه وعمله ويعطيه لغير القادر على العمل ، وبذلك يحصل على جزء من الصبر ؛ لأنه يعطى بعضاً من فائدة عمله للعاجز عن العمل ، ويكون الفقير قد أخذ نصف الشكر ونصف الصبر . فقد صبر على فقره، وجاء له المال بلا تعب فشكر الله على نعمته . وهكذا نجد أن الاثنين إذا طبَّقا منهج الله أخذا نصف الصبر ونصف الشكر .

وعلى العاجز عن الكسب ألا يغضب ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يعطيه الرزق بلا تعب . بل إنك قد تجد الغنى وهو يبحث عن مصارف الزكاة ويسأل عن الفقراء ليعطيهم .

وكثيراً ما نرى إنساناً عزيزاً فى أزمة ، ونجد من أصدقائه من يقترض ليعطيه . والله سبحانه وتعالى قال :

﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) ﴾ [البقرة]

ومع أن المال مال الله فقد احترم سبحانه عمل الإنسان الذى يأتيه بالمال ، وطلب منه أن يعطى بعضاً منه أخاه المحتاج ؛ابتغاء مرضاة الله ، واعتبر

سبحانه وتعالى هذا العمل إقراضاً له جل جلاله ، وكأن الذى يعطى المال للمحتاج يقرض الله ، ولله المثل الأعلى؛ كالأب الذى يعطى مصروفاً لأولاده ، فيضعه كل منهم فى حصالته ، ثم تأتى للأب أزمة مالية، فيستأذن أولاده حتى يأخذ ما فى حصالاتهم، رغم أن مال الأولاد هو من مال الأب ، ورغم ذلك نجد الأب قد احترم ما وهبه من المال لأولاده؛ فاعتبره مالهم . كذلك الحق سبحانه وتعالى احترم عمل الإنسان ، فاعتبر المال ماله، وطلب منه أن يقرضه .

وفى هذا مَيْزة للغنى والفقير ، فالغنى يأخذ ميزة وشرفَ أنه أعطى لله ، والفقير أخذ ميزة ؛ لأن الله سبحانه وتعالى اقترض من أجله .

وجعل الله الزكاة من أركان الإسلام ، وجعل هذا الركن لمصلحة الفقير . فالغنى ليس له ركن فى إيمان الفقير ، ولكن الفقير له ركن من إيمان الغنى . والغنى حين يعطى جزءاً من ماله فهو يستغنى عن هذا الجزء . وهناك فرق بين أن تستغنى عن الشىء وتستغنى بالشىء. والحق سبحانه وتعالى مستغن عن الكون وما فيه ، فكأنه أعطى الغنى صفة من صفات الحق ؛ لأن الله مستغن عن مال الدنيا كله ، والمال ليس سلعة مفيدة فائدة مباشرة للإنسان .

والمثال الذى أقوله دائماً ، يوضح ذلك : لنفرض أن رجلاً عنده جبل من ذهب وتاه فى صحراء لا يجد فيها لقمة خبز أو شربة ماء ، فما هى فائدة جبل الذهب هذا ؟ إنه لا يساوى شيئاً . إذن: فالمال ليس غاية فى حد ذاته ، ولكنه وسيلة . وعندما يمنع الغنى ماله عن الفقير يكون قد جعل المال غاية فلا ينفعه . أما إذا أعطى الغنى بعضاً من المال للفقير ؛ فهو قد أعاد إلى المال وظيفته فى أنه وسيلة من وسائل الحياة . وأنت تشترى بالمال ما تعتقد أنه ينفعك ؛ فعليك أن توظفه فى أكمل ما ينفعك ؛ وهو رضا الله سبحانه وتعالى وثوابه .

واحترم الحق سبحانه حركة الحياة فى العمل ؛ حتى يعمل كل إنسان على قدر طاقته ، وليس على قدر حاجته ؛ لأن الإنسان إذا عمل على قدر حاجته فقط لما وُجد فائض من مال للزكاة .

ولذلك سمى الحق سبحانه وتعالى المال الذى يكسبه الإنسان فى الدنيا مال الإنسان ، حتى يعمل كل منا على قدر طاقته ؛ لأن المال ماله . وعندما يزيد ما عندك من مال على حاجتك فأنت لاتحب أن يفارقك المال الزائد ، وفى الوقت نفسه تحرص على أن تنفقه فيما ينفعك ، فيرشدك الحق إلى إنفاق بعض المال فى خير ما ينفعك ، وهو أن تعمل لآخرتك .

إذن : فأنت محتاج إلى التصدق ببعض من المال الزائد لتحسُنَ آخرتك . والفقير محتاج إلى بعض من المال الزائد عن حاجتك ليَعيش . فكلاكما يحتاج الآخر ، ولكن الله سبحانه وتعالى احترم عمل الإنسان ، فجعل له النصيب الأكبر مما يكسب ، وللفقير نصيب أقل .

وعلى سبيل المثال : إن عثر الإنسان على كنز فزكاته عشرون فى المائة [1] ، وإذا زرع الإنسان وروى وحصد فزكاته هى عشرة فى المائة [2] ، أما إذا كان رزق الإنسان من عمل يومى كالتجارة ، فالزكاة هى اثنان ونصف فى المائة ؛ ذلك أنه كلما كثرت حركة الإنسان فى عمله قلَّتْ الزكاة . وكلما قَلَّ عمل الإنسان فيما يكسب ؛ زادت الزكاة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يشجع العامل على العمل . والمجتمع هو المستفيد بالعمل وإن لم يقصد صاحبه ذلك .

(١) زكاة الكنز : هو ما يسمى زكاة الركاز ، وقد قال ﷺ : « وفى الركاز الخمس » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٢٥٥) ومسلم (١٧١٠) عن أبى هريرة . والركاز هو ما ركز فى باطن الأرض من معادن وأحجار وغير ذلك .

(٢) فى هذا تفصيل ، فالقدر الذى يجب إخراجه يختلف باختلاف السقى ، فما سقى بدون استعمال آلة كمطر وغيره ففيه عشر الخارج ( أي ١٠٪ ) أما إن سقى بآلة أو بماء مشترى ، ففيه نصف العشر ( أى ٥٪ ) ، ودليل هذا قول رسول الله ﷺ : « فيما سقت السماء والعيون ، أو كان عثريا العشر ، وفيما سقى بالنضح نصف العشر » رواه البخارى (١٤٨٣) عن ابن عمر .

فالذى يبنى عمارة - مثلاً - إنما يفتح باب العمل لمن يحضر الرمال ، ولمن يحضر الطوب والأسمنت والحديد ، وهو يدفع لوسائل نقل هذه المواد إلى موقع البناء ، ويدفع أجوراً لمن قاموا بصناعة وتركيب الأدوات الصحية ، والكهرباء ، وغير ذلك وقد لا يستفيد صاحب العمارة منها لانتهاء أجله .

إذن : فالمجتمع كله يستفيد من بناء العمارة ، حتى ولو لم يكن فى بال صاحبها أن يفيد المجتمع ، ويعتقد بعض الناس أن العمل وحده هو الذى يأتى بالمال ، وينسون أن الله هو الذى ييسره لهم، ويُمكّنُهم منه. ويلفتنا سبحانه إلى ذلك حين تأتى آفات تتلف الزرع وتُضَيّعُ تعب من قاموا بالحرث والبذر والسَّقْى ؛ لعلنا نلتفت إلى أن كل شىء يتم بإرادة الله ، وليس بالأسباب وحدها .

وسبحانه وتعالى حين يقضى بذلك ، يلفتنا أيضاً لفتة أخرى فيبارك فى زرع فى بلد آخر أو مكان آخر ، فإذا هلك محصول القمح فى دولة ، كانت هناك دولة أخرى يزيد فيها محصول القمح ، فيشترى هؤلاء من هؤلاء ، أو ترسل الدول التى جاءها محصول وفير إلى الدول التى هلك فيها الزرع كمعونة أو إغاثة ، وبذلك تتعادل سبل الحياة .

ولابد لنا أن نتذكر دائماً أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أعطانا القدرة ، ولا أحد يستطيع أن يعطى القدرة للإنسان غير الله تبارك وتعالى . فالقدرة المطلقة هى لله سبحانه وتعالى ، وسبحانه يُمرِّرُ بعضاً من أثر قدرته إلى خلقه ، فنجد إنساناً يستطيع بقدراته أن يُعِين إنساناً آخر فى حَمْل شىء ثقيل لا يستطيع صاحبه أن يحمله .

وفَرْقٌ بين أن تتبرع أنت بأثر قوتك ؛ وبين أن تهبَ الغير هذه القوة . فالبشر يعطى أثر القوة ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يهب القوة لمن يشاء .

المال - إذن -لا ينفع بذاته ، وإنما هو يُحضر الشيء النافع للإنسان ، فإذا احتجت إلى طعام أو شراب أو ملابس أو سيارة أو غير ذلك اشتريتها بالمال. إذن : فالمال هو وسيلة البشر للحصول على احتياجاتهم. ولذلك يعتز به الإنسان . والمثال : أن الأبناء الذين يأخذون المصروف كل شهر من الأب ، تجدهم يحرصون على لقاء الأب في أول الشهر ، وقد لا يلتفتون إليه باقي الأيام. أما إذا كان المصروف في كل يوم فتجد الأولاد يحرصون على لقاء أبيهم في كل يوم.

والحق سبحانه وتعالى هو خالق النفس البشرية ، يعلم ما في صدور الناس ؛ ولذلك يُلفت القادر إلى ضرورة أن يُخرِجَ بعضاً من ماله للعاجز عن الكسب.

ونحن نعيش في عالم أغيار ، ومن الممكن أن يصبح القادر اليوم عاجزاً غداً. ولذلك نجد القادر يمتليء بالقلق إن رأى عاجزاً. وهنا يتذكر نعمة الله عليه ؛ فيسرع ليدفع بعضاً من ماله إلى العاجز ؛ وهو راضٍ ، خوفاً من أن يحدث له مثل ما حدث لهذا العاجز . ويقول الحق:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ... (١٠٣) ﴾ [التوبة]

إذن: فالصدقة تطهر الإنسان من الغفلة التي قد تصيبه، وتُزكّي الإنسان أيضاً ، وشاء سبحانه أن تكون الزكاة نمواً وزيادة وإن بدت في ظاهرها على أنها نقص . فالمائة جنيه [1] تصبح سبعة وتسعين ونصفاً بعد إخراج الزكاة ، وهي عكس الربا الذى قد تصبح فيه المائة مائتين ، وظاهر الربا أنه زيادة ،

(١) هذا مثال فقط، وليس معناه أن من معه مائة جنيه تجب فيها الزكاة، فزكاة المال لها نصاب محدد قدره العلماء بما يعادل ثمن ٨٥ جراماً من الذهب ويحول عليها الحول.

ولكنه يمحق كل خير ، وظاهر الزكاة أنها نقص ، ولكنها فى حقيقتها نماء . والنماء أن يترقى الشىء فى مراتب الكمال ؛ فينمو طهارة ، وينمو تزكية ، وينمو بالزيادة والبركة . والإنسان يحتاج إلى المال ليحصل على ضروريات الحياة وكمالياتها ؛ فيطمئن إلى حاضره ومستقبله .

لكن لنفرض أن المال دام لك طول العمر ، وأنت تعرف أن العمر مهما طال ، قصير . ولا بد أن يأتى يوم تفارق فيه هذا المال بالموت . فى هذه اللحظة يكون ما كنزت من المال قد صار إلى ورثتك ، ولا يصحبك منه إلى آخرتك إلا ما أنفقت فى سبيل الله ، أى : أن ما أنفقت هو ما يبقى لك فى عالم الخلود لا يفارقك ولا تفارقه . وشاء الحق أن يضاعف لك الجزاء والثواب .

ويقول رسول الله ﷺ : « يقول ابن آدم : مالى مالى . . وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت ؟ » [1]

إذن : فالذى يحب ماله عليه أن يصحب معه هذا المال لمدة أطول ، وأن يتعدى به مجرد الوجود فى الدنيا ، وأن يصل به إلى دار الخلود . ومن يعشق المال - إذا أراد أن يبقيه - فلينفقه فى الصدقة .

ولنا الأسوة الحسنة فى رسول الله ﷺ حين جاءته شاة كهدية ، فقال للسيدة عائشة رضى الله عنها : « تصدقى بلحمها ». وكانت السيدة عائشة رضوان الله عليها تعرف أن رسول الله ﷺ يحب لحم الكتف ، فتصدقت بلحم الشاة كلها ، وأبقَتْ قطعة من لحم الكتف لرسول الله عليه الصلاة

(١) حديث صحيح . أخرجه مسلم ( ٢٩٥٨ ) وأحمد فى مسنده ( ٤/ ٢٤ ، ٢٦ ) والترمذى فى سننه ( ٢٣٤٢ ) والنسائى فى سننه ( ٦/ ٢٣٨ ) عن عبد الله بن الشخير .

والسلام . وعندما عاد رسول الله ﷺ ، سألها : ماذا فعلت بلحم الشاة ؟ قالت : تصدقت بها كلها وأبقيت كتفها . فقال : « بل قولى أبقيتها كلها إلا كتفها » (1) .

وذلك لأن ما تصدقت به السيدة عائشة هو الباقى . وما أبقته لهما هو الذى سيفنى . وهكذا سمى رسول الله ﷺ الأشياء بحقيقة مسمياتها .

فالذى يحب صحبة ماله فى الدنيا والآخرة ، عليه أن يقدم بعضاً منه صدقة للفقير والمحتاج ، ليبارك الله له فى الدنيا ، ويجزيه خير الثواب فى الآخرة . وقد سأل رجل الإمام عليا رضى الله عنه : أريد أن أعرف : هل أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ . قال الإمام على كرم الله وجهه : الجواب عندك أنت ، لا عندى ، انظر إذا دخل عليك من يعطيك ، ودخل عليك من يطلب منك ، أيهما ترحب به وتقابله ببشاشة ؛ أيهما تحب ؟ إن كنت تحب من يأخذ منك فأنت من أهل الآخرة ، وإن كنت تحب من يعطيك فأنت من أهل الدنيا ؛ لأن من يأخذ منك يحمل حسناتك إلى الآخرة ، وأما من يعطيك فيزيدك من الدنيا ولا يعطى آخرتك شيئاً .

ونقول للذى يحب المال : اجعل حبك للمال يبقيه لك فترة أطول من عمر الدنيا ؛ فالدنيا ليست هى المقياس ، ودنياك قدر عمرك فيها . أما الآخرة فأنت خالد فيها ، فتصدق ببعض مالك يكن لك خيراً فى الآخرة .

ويذيل الحق الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أى : أنه سبحانه وتعالى يضع الأشياء فى موضعها عن علم وحكمة مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [ الملك ]

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٥٠ ) والترمذى (٢٤٧٠) وقال: هذا حديث صحيح .وأخرجه أبو نعيم فى الحلية ( ٥/ ٢٣) ولفظ الحديث عن عائشة أنهم ذبحوا شاة فقال النبى ﷺ : « ما بقى منها ؟ » قالت: ما بقى منها إلا كتفها . قال: « بقى كلها غير كتفها ».

وأما الحكمة فيدير بها الحق سبحانه حياة كل الناس ، وكلهم عبيد لله ، ولا فرق بين غنى وفقير . وشاء الحق أن يجعل التفرقة فقط فى الدنيا ؛ لأن العالم لا يحتاج إلى أفراد مكررين ، ولا يمكن أن تستقيم الحياة إن كنا كلنا أطباء أو كلنا مهندسين أو كلنا قضاة ؛ لذلك شاء سبحانه أن تتوزع المواهب على قدر ضروريات الحياة ، فنبغ كل واحد منا فى شىء ؛ أنا أتقن شيئاً ولا أعرف الباقى ، وغيرى يتقن شيئاً آخر ولا يعرف الباقى . فأكون فى حاجة إلى عمل غيرى ، وغيرى يحتاج عملى ، وبذلك يصير الرباط بيننا رباط حاجة ورباط رزق ، لا رباط تفضل وتطوع .

إذن : فالحكمة اقتضت أن يوزع سبحانه وتعالى المواهب على الخَلق بقدر ما تتطلب الخلافة فى الأرض من حركات الحياة ؛ فأعطى هذا زاوية من نبوغ ، وأعطى الآخر زاوية أخرى من النبوغ ، ومن مجموع هذه الزوايا يتكون المجتمع ، وسبق أن قلنا : إن مجموع كل إنسان يساوى مجموع الآخر ، ولكن الناس لا تنظر إلا للمال ، ولا يلتفتون إلى ما هو أهم من المال ، كالصحة ، والأخلاق ، وراحة البال ، وسعادة الأولاد وتوفيقهم ، ثم البركة فى الرزق وغير ذلك .

إنك لو وضعتَ لكل هذه الأشياء رقماً من عشرة مثلاً ؛ تجد أن مجموع كل إنسان فى النهاية يتساوى مع مجموع أى إنسان آخر ، ولا تفاضل إلا بالتقوى . وإن رأى إنسان عاجز غيره ممن يملكون المال ولا يخرجون منه زكاة أو صدقة ، فماذا يكون موقفه ؟ لابد أنه سيتمنى زوال النعمة عن هؤلاء . ولكن إن عادت نعمة القادر الغنى على من لا نعمة عنده ، فهذا يجعل العاجز الفقير مُحباً لدوام النعمة عند صاحبها ؛ لأنه إن حُرِمَ الغنى

القوة ، حُرِم العاجز الفقير من آثارها ؛ ولذلك فعندما يعطى الغنى للفقير ، فهو يدعو له بالبركة ، وحين يبارك الله فى تلك النعمة سيعود على الفقير بعض منها .

وإن لم يأخذ الفقير المحتاج صدقة من الغنى ، فقد يأخذها تلصُّصاً بأن يتحايل عليه ليسرقه أو ينهبه ، أو ربما دفعه الحقد والحسد إلى أن يقتله أو يتآمر على قتله .

إذن : فالزكاة فى المجتمع تدفع شروراً كثيرة عن صاحبها . وهى ضرورة من ضروريات الحياة . ولذلك رأينا القادرين فى المجتمعات التى لا تؤمن بدين وهم يتطوعون لإقامة المؤسسات الاجتماعية لرعاية غير القادرين لدفع شرور العاجزين عن مجتمعاتهم ؛ لذلك تجد فى معظم دول العالم من يحاول تخصيص جزء من المال لكفالة العجزة والمتعطلين ليعيشوا حياة الكفاف ، وبذلك يأمن المجتمع شرورهم .

على أن قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ** ﴾ معناه : أن الصدقات قد فرضت لهؤلاء ، والذى فرضها هو الحق سبحانه بقوله : ﴿ **فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ** ﴾ .

وقد تُفرَض الصدقات من البشر كضريبة اجتماعية ، أو غير ذلك ، لدفع الشرور عن المجتمع ، ولكن هذا لايحدث إلا بعد أن تقع أحداث جسام يشقى بها مجتمع القادرين من مجتمع العاجزين ، ويخرج من يقول : لكى تأمنوا شرهم لابد أن تعطيهم حاجاتهم حتى يستقيم الأمر .

وهكذا نجد أن تشريعات البشر لا تأتى إلا بعد أن يشقى المجتمع لفترة طويلة من وضع موجود ، ولكن الحق سبحانه وتعالى رحمة منه بخليفته

فى الأرض جاء بالتشريع من أول الخلق ، بل من قبل الخلق ؛ حتى يرتب للإنسان حياة سعيدة خالية من الشقاء. ولذلك شرع الدين ورتَّبَ أحكامه لينزل إلى البشر ؛ فيكون منهجاً لهم يحميهم من شرور قاسية قبل أن تقع.

وشاء الحق سبحانه أن يجعل « سورة براءة » فاضحة كاشفة للمنافقين ؛ لذلك كان من بين أسمائها : « السورة الحافرة » ؛ لأن المنافق ربما يستر كفره ، ويفضح الله هذا الكفر بأن يحفر عليه ليخرجه - ولله المثل الأعلى - فالإنسان يحفر الأرض ليكشف المخبوء فيها ، وهذه السورة ذكرت من صفات المنافقين الكثير.

فقد قال الحق : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي .. (٤٩) ﴾ [التوبة]

وقال عز وجل: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ .. (٧٥) ﴾ [التوبة]

وقال سبحانه: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ... (٥٨) ﴾ [التوبة]

ولذلك يسمونها " مَنَاهِم التوبة ". وهنا يبين الحق صورة جديدة للمنافقين وتصرفاتهم فيقول:

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) ﴾

ونعلم أن الإيذاء لرسول الله ﷺ جاء بعد النبوة ، وكان بعض الكفار يقولون ما حكاه القرآن على ألسنتهم :

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

وهذا دعاء مَنْ لا عقل له ، ولو كانوا يعقلون لقالوا : إن كان هذا الحق من عندك فَاهْدنا يارب إليه ، أو اجعلنا نؤمن به . ولكنهم من فَرْط حقدهم وضلالهم ، تمنَّوا العذاب على الإيمان بالحق . وهذا يكشف لنا تفاهة عقول الكفار .

وهنا يقول الحق سبحانه (١):

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾ والذين يؤذون رسول الله ﷺ هم السادة ، وهم أصحاب النفوذ الذين يخافون أن يذهب منهج هذا النبى بنفوذهم ؛ وثرواتهم ؛ وما أخذوه ظلماً من الضعفاء. والضعفاء - كما نعلم - هم أول من دخل إلى دين الإسلام ؛ لأنهم أحسوا أن هذا الدين يحميهم من بطش الأغنياء واستغلالهم ونفوذهم. وشاء الحق أن يبدل خوف الضعفاء قوة وأمناً، وشاء سبحانه أن يضم إلى الإيمان عدداً من الأغنياء ؛ ومن رجال القمة مثل: أبى بكر الصديق ، وعثمان بن عفان ، وعمر بن الخطاب وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين ، حتى لا يقول أقوياء قريش مثلما قال قوم نوح لنبيهم:

﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ... (٢٧) ﴾ [هود]

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣١١٧/٤) : « هذه الآية نزلت فى عتاب بن قشير ، قال : إنما محمد أذن يقبل كل ما قيل له . وقيل : هو نبتل بن الحارث . قاله ابن إسحاق ».

وهكذا كان الإيذاء له ﷺ بعد الرسالة، أما قبل الرسالة فكان فى نظر الجميع هو: الأمين والصادق والمؤتمن.

ومن العجيب أنهم، بعد أن نزل الوحى ، كانوا لا يستأمنون أحداً مثلما يستأمنون محمداً ﷺ. فإذا كان هناك شىء ثمين عند الكافرين المعارضين ، ذهبوا إلى رسول الله ليحفظوا هذه الأشياء الثمينة عنده . وهذا التناقض لا يفسره إلا وثوقهم فى أخلاقه ﷺ . ورغم ذلك كانوا فى غيظ وكَمَد ؛ لأن القرآن قد نزل عليه . والحق هو القائل ما جاء على ألسنتهم:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾

[الزخرف]

وهم بذلك قد اعترفوا بألسنتهم بعظمة القرآن، بعد أن اعترفوا بسلوكهم بأمانة محمد ﷺ، ولكنهم اعترضوا على اختيار الحق سبحانه له، وتمنوا لو كان هذا القرآن قد نزل على أحد عظمائهم [(١)]. ورد الحق سبحانه عليهم:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا... (٣٢)﴾ [الزخرف]

وفى هذا دعوة لأن يتأدبوا مع الله سبحانه ، فهو لم يوكلهم فى اختيار من ينزل عليه رحمته ، ورسالته ، ولكنه سبحانه هو الذى يختار . وهو الذى قسم بين العباد معيشتهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . وإذا كان لأحد نعمة من مال أو جاه أو مجد ، أو غير ذلك ، فهذا ليس من قدرات البشر أو من ذواتهم ، ولكنه نعمة من الله .

(١) القريتان هنا : مكة والطائف . وقد اختلف العلماء فى تحديد الرجل العظيم المقصود. فمن مكة: الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة. ومن الطائف: عروة بن مسعود أو عمير بن عبد ياليل. قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ١٢٧) : « الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان ».

وهنا يقـول الحق سبـحـانه : ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾ إذن : فالإيذاء سببه أنه ﷺ جاء بدعوة الخير ، ولا يجيء رسول بدعوة الخير إلا إذا كان الشر قد عم المجتمع . وحين يعم الشر فى المجتمع فهناك مستفيدون منه ، فإذا أتى رسول الله بالخير أسرع جنود الشر ليؤذوا صاحب رسالة الخير ، إذن : فمن الطبيعى أن يكون للنبى أعداء .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ... (١١٢) ﴾ [الأنعام]

بل إن كل من يحمل من العلماء رسالة رسول الله ليبلغها إلى الأجيال التالية ، إن لم يكن له أعداء ، أنقص ذلك من حظه فى ميراث النبوة ، وكل من له أعـداء ويقـوم بهداية النـاس إلى منـهج الله ، نقـول لـه : لا تنزعج ، واطمئن ؛ لأن معنى وجود من يعاديك ، أن فيك أثراً من آثار النبوة .

وتمثَّل إيذاء المنافقين له ﷺ فى عدة صور ؛ منها قولهم : ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ .

وللإنسـان - كما نعلم - وسائل إدراك متعددة : فالأذن وسيلة إدراك ، والعين وسـيلة إدراك ، والجـوارح كلهـا وسـائل إدراك . وكل إنسـان له ملكات متعددة ، منها ملكات إدراكية وملكات نفسية ، والملكات الإدراكية هى التى يدرك بها الأشياء مثل : السمع والبصر والشم والذوق . أما الملكات النفسية فهذه يوصف بها الناس . وعلى سبيل المثال : نحن نسمى الجاسوس عيناً ؛ لأنه يتجسس وينقل ما يراه إلى غيره . ونسمى الرجل

الذى يسمع كل حدث « أُذُن » ، ونسمى اللص الذى يتعدَّى على مال غيره صاحب اليد الطويلة وهكذا.

إذن: كل جارحة لها حاسة ، والنظر والسمع والشم واللمس والذوق كلها من وسائل الإدراك الحسية التى تتكون منها الخمائر المعنوية ، ثم تصبح عقائد ، فوسائل الإدراك هذه تتلقى من العالم الحسى ما يعطيه لها من معلومات ، وتخزنها لتتصرف بعد ذلك على أساسها ، وتكون فى مجموعها هى ما يعلمه الإنسان ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يمتنُّ على خَلْقه ، فيقول:

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

والشكر لا يكون إلا على النعمة ، فكأن وسائل الإدراك هذه مما تسمعه أو تراه ببصرك ، أو تدركه بفؤادك هى من نعم الله التى يجب أن نشكره عليها ؛ لأنها أعطتنا العلم الحسى بعد أن كنا لا نعلم شيئاً.

وإذا أطلقَ على الإنسان اسم جارحة من جوارحه ، فاعلم أن هذه الجارحة هَى العمدة فيه ، فكأن قول المنافقين وصفاً للرسول ﴿هُوَ أُذُنٌ ﴾ هو سَبٌّ للرسول ، وكان الواحد منهم يقول : احذروا أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ فيكشف نفاقكم ويؤذيكم ؛ لأن محمداً عليه الصلاة والسلام فى رأيهم يُصدِّق كل شىء . أرادوا أن يتهموه ﷺ أنه لا يمحص القول الذى يُنقل إليه ويصدق كل ما يقال له ، كما نقول نحن فى العامية « فلان ودَنِى» أى : يعطى أذنه لكل ما يقال له.

فيرد عليهم الله :﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ ؛ لأنه ﷺ يستمع لمنهج السماء ويبلغه للبشر ليهدى أهل الأرض ، إذن: فهو خير للناس كلهم . وحتى إذا

أخذنا كلامهم فى أن رسول الله ﷺ يصدقهم إن كذبوا عليه ، فهذا خير لهم ؛ لأنه ﷺ لا يؤذيهم ، وهو ﷺ ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾ لأنه لا يسمع إلا من الله بالوحى . ولذلك قلنا : إن الحكمة من أمية رسول الله عليه الصلاة والسلام ، أنه لم يستمع من مُسَاوٍ له ، وإنما كان علمه من الله . فإذا كانت الأمية فينا نحن نقيصة ؛ فإنها الكمال كله فى حق رسول الله عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه لم يأخذ إلا من خالقه ، وهو أذن خير ؛ لأنه الأذن التى استمعت إلى آخر إرسال ينزل من السماء لهداية الأرض .

فإذا كان المنافقون قد قالوا : (هُوَ أُذُنٌ ) فقد قال سبحانه : ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ ، وهو خير يعود نفعه على البشرية كلها ، ولكن ليس بالمعنى الذى تعيبونه عليه ، فهو قد يسمع إساءاتكم ، ثم يسمع اعتذاركم فلا يؤذيكم ويعفو عنكم .

وما دام هذا هو سلوك رسول الله ﷺ فلماذا تؤذونه وترهقونه ؟

وفى اللغة ما يسمونه " القول بالموجب " ، فإن قال لك واحد شيئاً تصدقه وتقول له : نعم ، ولكن قد تأخذها على مَحْمل آخر ، فإن كان هناك إنسان يُكثر الزيارة لإنسان ويقول له : أنا أثقلْتُ عليك ، ويرد عليه : أنت أثقلتَ كاهلى [1] بأياديك ، أى أن أفضالك علىَّ كثيرة . وإن قال لك واحد : " أنا طولت عليك " ، يرد عليه صديقه : لا ، أنت تطولت علىَّ ، أى : أعطيتنى نعمة بأنك أسعدتنى بمجلسك . إذن : فهو قد وافقه على ما قال ، ولكنه رد عليه بعكس ما قال .

وهم قد عابوا على الرسول أنه أذن ، فكأن أذنه تتحكم فى كل تصرفاته ، وإن سمع شيئاً تأثر به . وإن سمع شيئاً ينغصه ينقلب موقفه من

(١) الكاهل : هو ما بين كتفى الإنسان .

النقيض إلى النقيض . وحاولوا أن يدَّعوا عليه أنه يصدق كل ما يسمعه ولا يحتاط تجاه من يبلغه ، وقالوا : إنه ﷺ ﴿ أُذُنٌ ﴾ ، وردَّ الحق سبحانه ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾ وبطبيعة الحال لم يكن قول الحق موافقاً لما قالوه ؛ لأن "أُذُن" عندهم غير ﴿ أُذُن ﴾ التى أقرها الله سبحانه وتعالى .

وقد يقول بعض السطحيين : إن المنافقين قالوا عن رسول الله ﷺ ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ وهم يقصدون بذلك أنه يسمع ويصدق كل ما يقال له ، وليس له حكمة التمحيص والاختيار . لكن لنلتفت إلى أن الحق قد قال : ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ ﴾ ؛ لأن رسول الله ﷺ لا يسمع إلا من الله ، وما يسمعه من الله أطاعه وطَّبقه ، وما سمعه من الناس؛ عرضه على منهج الله ؛ فإن وافق المنهج نفذه ، وإن تعارض مع المنهج رفضه . إذن : فهو أذن للخير لا يسمع إلا من الله ، ولا يأتى من رسالته إلا الخير لمن اتبعه .

ولكن لماذا لم يقل الحق سبحانه وتعالى : أذن خير للمؤمنين ، وقال : ﴿ أُذُن خَيْرٍ لَكُمْ ﴾ ؟ ؛ لأن خيرية رسول الله قد شملت الجميع ، وتعدَّتْ المؤمنين إلى المنافقين وإلى الكفار . فكان رسول الله ﷺ لايفضح منافقاً ، إلا إذا فضح الله المنافق بقرآن نزل من السماء .

وعلى سبيل المثال : كان المنافقون يأتون إلى الرسول ﷺ ، ويعتذرون عن الجهاد فى سبيل الله ؛ ويطلبون الإذن بالقعود . وكان رسول الله ﷺ يعطيهم الإذن . وحين كان المنافقون يأتون إلى الرسول الكريم ويحلفون له كذباً ، كان يصدقهم ، أو على الأرجح لا يفضح كذبهم أمام الناس .

إذن : فالخيرية فيه عليه الصلاة والسلام شملت المنافقين ؛ لأن خُلُقَه الكريم أبى أن يفضحهم أمام الناس . أما الكفار فقد شملتهم الخيرية أيضاً ؛

لأن دعوته لهم إلى الإسلام ، وإصراره ﷺ على هذه الدعوة ، جعل عدداً من الكفار يسلم ويؤمن ، وأصابهم خير عميم من اهتدائهم لدين الحق . إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أى : للبشرية كلها .

وهكذا فرق الحق سبحانه وتعالى بين ما يريدونه ، وما يقصده الله جل جلاله . هم قصدوا وصف الرسول أنه أذن سَمَّاعة . والله يقول : إنها أذن خير ؛ وهذا ما يسمونه فى اللغة - كما قلنا - : " بالقول الموجب" ، أى : أن تتفق مع خصمك فيما قاله ، إلا أنك تحول ما قاله من الشر إلى الخير . والمثال أيضاً فيما يقوله الحق سبحانه وتعالى على ألسنة المنافقين حين قالوا :

﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ .. (٨) ﴾ [المنافقون]

كانوا يقصدون أنهم هم الأعز ، أما الأذل فهم المؤمنون . ووافقهم الحق سبحانه وتعالى على ما قالوا ؛ نعم سيُخرج منها الأعزُّ الأذلَّ . ولكنه أراد أن يبين لهم من هو العزيز ومن هو الذليل ؛ فقال :

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ... (٨) ﴾ [المنافقون]

فكأن الحق سبحانه وتعالى يؤكد لهم أن الأعز سيُخرج الأذل ، ولكنهم يحسبون أنفسهم هم الأعزاء ؛ فيقول لهم : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ . هذا ما يسمونه بالقول الموجب ، أى : أن تتفق مع من يقول ، ويقصد أن يوجه كلامه وجهة الشر ؛ فتقلب المقصود من الكلام وتوجهه وجهة الخير . وهذا مقصود به هنا أن تزيد من ذلة المخاطب ، فأنت تجعله يعتقد أنك توافقه ، فتنفرج أساريره ويشعر بالسعادة ؛ ثم بعد ذلك تنقض ما قاله ؛ فيصاب بالذل . تماماً كما يأتى الحارس لسجين يشعر

بظمأ شديد ويُلِحُّ فى طلب كوب ماء . فيقول له الحارس : سأحضر لك كوب الماء. وفعلاً يحضر الكوب مليئاً بالماء المثلج ، ويفرح السجين ويظن أنه سينال ما يريده ، ولكن ما إن يقرب الحارس الكوب من فم السجين ، حتى يفرغه على الأرض ، فيكون تعذيبه أكبر مما لو رفض منذ البداية إحضار كوب الماء.

وهكذا شاء الحق سبحانه وتعالى أن يزيد ذلة المنافقين ، فوافقهم على أن رسول الله ﷺ "أُذُن" ثم جاء بنقيض ما كانوا يقصدونه فقال :

﴿ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ﴾ وما دام ﷺ يؤمن بالله فهو يأخذ منهجه من الله سبحانه وتعالى ، ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم.

إذن : فهناك ثلاثة أدلة على خيرية رسول الله ﷺ : أنه يؤمن بالله وينفذ منهجه. ثم يؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا. ونلاحظ أن هناك اختلافاً بين قوله تعالى : ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ وبين قوله عز وجل : ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾. فبالنسبة للإيمان بالله جاء بالباء فى قوله : ﴿ بِاللَّهِ ﴾ وبالنسبة للمؤمنين جاء باللام فى قوله : ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

بعض الناس يقولون : إن هذه مترادفات ؛ لأن معنى ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ أى : يصدق بوجوده. والمنافقون كفرة بالله ، ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ معناها أنه ﷺ يصدق المؤمنين. أما المنافقون فهو ﷺ يعرف أنهم كاذبون فلا يصدقهم . ولكنه لا يفضحهم أمام المؤمنين ؛ حتى لا يقطع عليهم خط الرجعة إن كانوا ينوون الإيمان فعلاً .

ولو فضحهم ﷺ أمام المؤمنين لضاعت هيبتهم تماماً . وإن فكر أحدهم فى ترك النفاق إلى الإيمان ، لوجد صعوبة شديدة فى ذلك ؛ لأن أحداً لن

يصدقه . ولكن أراد ﷺ أن يسترهم أمام المؤمنين ؛ فجعل باب الإيمان مفتوحاً على مصراعيه ؛ لأنه ﷺ إنما جاء رحمة للعالمين ، ولذلك فهو يحرص على أن يبقى باب التوبة وباب الإيمان أمامهم مفتوحاً دائماً مع حفظ كرامتهم .

قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : يصدقهم ، وكلمة الإيمان بالنسبة للناس جاءت فى آيات كثيرة ، منها قوله تعالى حين أعلن السحرة إيمانهم برب موسى وسجدوا ؛ قال لهم فرعون :

﴿ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ .. (٧١) ﴾ [طه]

ومعنى ﴿ آمَنتُمْ لَهُ ﴾ أى : صدَّقتموه ، ولكن ما هو الفرق بين الباء واللام ؟ أنت حين تقول : آمنا بالله . فأنت تعلن أنك قد آمنت بالذات بكل صفات الكمال فيها، وحين تقول : آمنت للمؤمنين فيما قالوه ، أى صدقتهم لأنهم مؤمنون.

ومادة "آمن" تدور كلها حول الأمن والطمأنينة ، ولكنها تأتى مرة لازمة ومرة متعدية. مثلما تقول : "آمنت الطريق" أى : اطمأننت إلى أنه لن يصيبنى فيه شر . ومنها قول يعقوب عليه السلام لبنيه :

﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ... (٦٤) ﴾ [ يوسف]

أى : أن السابقة هنا أنه آمنهم على يوسف فلم يرعوا الأمانة ، فصار لا يأمنهم على أخى يوسف ، وهذه آمن اللازمة . أما المتعدية فهى التى يتعدد فيها الأمن ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ... (٤) ﴾ [قريش]

والخوف متعدد فى أشكاله ، فهناك مثلاً خوف من الظلام ، وخوف من العدو ، وخوف من مخاطر الطريق ، إذن : فالأمن هنا شمل أشياء متعددة وقد أدخلهم الحق سبحانه فى الأمان والطمأنينة من أشياء متعددة .

وقوله تعالى : ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ هو إيمان بالذات ، وإيمان بالصفات ، وإيمان بالمنهج ، وإيمان يسع أمة رسول الله ﷺ كلها ، فكأن الإيمان هنا قد تعددت جوانبه . أما الإيمان للمؤمنين فهو تصديق لهم وهذا هو الخير الثانى . وقوله سبحانه ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ؛ لأنه ﷺ شفيع لهم يوم القيامة ، وقال : "أمتى أمتى" .[1] وهو رحمة لهم فى الدنيا ؛ لأنه يقودهم إلى الخير الذى يقودهم إلى سعادة الدنيا ثم إلى جنة الآخرة ، ويبعدهم عن الشر والنار ؛ فهو ﷺ رحمة تدفع الضرر وتأتى بالخير ، والرحمة إنما تأتى باتقاء الضرر .

والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ .. ﴿٨٢﴾﴾ [ الإسراء ]

الشفاء يعنى أن يكون هناك مرض ويشفى الإنسان منه ، والرحمة ألا يأتى المرض ، فكأن رسول الله ﷺ يبشر بمنهج إذا اتبعه الناس وآمنوا به ؛ كان لهم وقاية فلا يصيبهم شر فى الدنيا ولا نار فى الآخرة .

ويتساءل بعض الناس : لقد قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ والمنافقون قد آمنوا بألسنتهم فقط فما موقفهم ؟ نقول : إن الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه رحمة فقد احترم كلمة اللسان وصدقهم أمام الناس ، أما الحق سبحانه فينزلهم فى جهنم .

(١) حديث الشفاعة حديث طويل أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧١٢) ومسلم فى صحيحه (١٩٤) من حديث أبى هريرة أنه ﷺ يأتى تحت العرش فيقع ساجداً ثم يفتح الله عليه من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبله . ثم يقال : يا محمد . ارفع رأسك ، سل تعطه واشفع تشفع ، فأرفع رأسى فأقول : يارب أمتى أمتى .

ثم يقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وإيذاء المنافقين لرسول الله ﷺ لم يكن بالمواجهة ؛ لأنهم أعلنوا كلمة الإيمان ، وكان الإيذاء لرسول الله ﷺ من المنافقين فى قلوبهم وفيما بينهم فى مجالسهم ، ولذلك لم يكن الإيذاء منهم مباشرة قط ، ولكن الآيات بينت أنواع الإيذاء بأنهم يلمزون فى الصدقات ، ويقولون : إنه أُذُنٌ ، ويحلفون له كذباً ليضللوه ، إلى آخر ما كانوا يفعلون .

ثم يأتى الحق بصورة أخرى من صور المنافقين فيقول سبحانه :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

ومن العجيب أن سورة التوبة فيها أكبر عدد من لفظ "يحلفون" ، ولم ترد مادة "يحلف" فى سورة المائدة إلا مرة واحدة ، وفى سورة النساء مرة ، وفى سورة المجادلة ثلاث مرات ، أما فى سورة التوبة فقد جاءت سبع مرات ، وفى سورة القلم جاءت "حلاف" ، حتى إن سورة التوبة سميت "سورة يحلف" [1] ؛ لأن فيها أكبر عدد من ﴿ يَحْلِفُونَ ﴾ فى القرآن الكريم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ وفى هذا إصرار من المنافقين على الحلف كذباً ، وهو ما يوضح غباءهم وعدم فطنتهم .

---

(١) هذه السورة لها أسماء كثيرة فهى : براءة ، والتوبة ، والفاضحة ، والحافرة ، لأنها حفرت عن قلوب المنافقين . وقال حذيفة : هى سورة العذاب . وقال ابن عمر : كنا ندعوها المشقشقة . وقال الحارث بن يزيد : كانت تدعى المبعثرة ، ويقال لها : المسورة ، ويقال لها : البحوث ؛ لأنها تبحث عن أسرار المنافقين . انظر : البرهان فى علوم القرآن للزركشى (١/ ٢٦٩) .